أبو تمام في إيران

اثر: الدكتور محمد علي آذرشب
من: جامعة طهران

چکیده

أبوتمام که بزرگترین شاعر عرب عصر عباسی ودارای خصوصیات شعری منحصر به فرد ومبتکر مکتب فنی جدیدی در شعر عرب بود به سال ۲۱۹هـ. ق به ایران سفر کرد وقصد عبداللّٰه‌بن طاهر امیر دولت طاهریان نمود. در این سفر در باره امیر وبرخی از شخصیتهای خراسان اشعاری سرود ، وکلیه حوادث سالها ۲۱۹ - ۲۲۳هـ ق ایران مانند قضایای مربوط به بابک وافشین ومازیار را در شعر خود آورده است.

این سفر در شعر ابو تمام تحوّل شگرفی بوجود آورد. ناقدان برآنند که پس از سفر به خراسان شعر وی وارد مرحله جدیدی شده است که در آن، تفکر وعمق وپختگی بیشتری دیده می‌شود.

شایان توجّه است که نه فقط أبو تمام بلکه دیگر شعرای بزرگ عرب چون متنبی از قدما وجواهری از معاصرین، پس از سفر به ایران چنین تحوّلی در شعر آنان صورت گرفته است.

مقاله حاضر برآنست که مهمترین حوادث ایران در شعر ابو تمام را بازگو کرده، مظاهر وعلل تحول شعر او پس از سفر به خراسان را بررسی نماید.

*****

مقدمة

التواصل الثقافي بين أجزاء العالم الاسلامي مظهر يستلزمه وجود الامة الواحدة،

وكان هذا التواصل قائما بشكل طبيعي حين كانت هذه «الامة» موجودة بكل مقوماتها على ساحة التاريخ، وحين انهارت ظهرت التجزئة باعتبارها من مستلزمات الانهيار والسقوط، وتعمّقت هذه التجزئة حتى ظنّ أن وحدة العالم الاسلامي ضرب من الخيال، غير أنّ أمامنا مالا يحصى من وثائق التاريخ والادب مما له دلالة على أن حالة التواصل الثقافي كانت قائمة على مرّ العصور بين أجزاء العالم الاسلامي. سياحة العلماء والادباء في أرجاء بلاد المسلمين واهتمامهم بما يجري في هذه البلاد ظاهرة هامة من ظواهر هذا التواصل. وفي هذا المقال نسلّط الضوء على اهتمام أبي تمام باحداث ايران وسياحته فيها باعتبارها واحدة من عيّنات الوضع الذي تهفو اليه قلوب كل المتطلعين الى وحدة أمتنا الاسلامية.

وأمر آخر نودّ أن نميط عنه اللثام في هذا المقال هو قدرة التواصل على الإنماء والاثراء في مختلف مجالات العلوم والفنون وسنرى أن ايران لها الاثر في أدب أبي تمام وشعره، وهذا الاثر نتيجة حتمية لهذا التواصل، وهي نتيجة يمكن أن نفهم منها أن الانماء والاثراء في عالمنا الاسلامي لا يمكن أن يبلغ درجته المطلوبة الا بعودة هذا التواصل.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

أبو تمام ومكانته الادبيّة

حبيب بن اوس الطائي، ولد في الشام، والآراء متضاربة في سنة ولادته، وفي صحة نسبه الى طيء، وفي ديانة أبيه، وفي نشأته، وفي مذهبه الديني والسياسي. قيل إنه ولد سنة ۱۸۸ وقيل ۱۹۰ وقيل سنة ۱۹۲[۱]. وزعم قوم أن أباه كان نصرانيا اسمه تدوس، ثم حرّف الى أوس[۲]. وقالوا إنه نشأ بدمشق وقيل إنه نشأ بمصر[۳]. وعن مذهبه قالوا إنه شيعي لقصيدته الرائية التي يفضل فيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على سائر الخلفاء ومطلعها:

أظبيةُ حيثُ استنتِ الكُثُبَ العفرُ رويدك لا يغتالك اللوم والزجرُ

وقالوا بانه لم يكن شيعيا ولكنه انجرف في الموجة العلوية التي أثارها المأمون(٤).

ومن مجموع الاقوال المتضاربة يمكن أن نفهم أن الرجل نشأ في عائلة مغمورة فقيرة، عمل منذ نعومة أظفاره في حرفة ليكسب قوته بعرق جبينه. لكن جوّ العالم الاسلامي آنئذ كان يوفّر الفرصة حتى لأبناء هؤلاء الفقراء ليتزودوا بالعلوم والمعارف. فالمساجد مملوءة بحلقات الدرس، والحضور فيها مفتوح لكل الطالبين. واختلف حبيب على هذه الحلقات فتزوّد منها معارف الدين والتاريخ والادب، وأهّلته لأن يصبح سيّد شعراء العربية.

غير أن حبيبا كان فيه كل ما يدفعه لهذا الرقيّ، وخاصة الاستقلال في الشخصيّة، وهذه الصفة أهلته للابداع ولأن يكون بين أنبغ الشعراء الموهوبين، ونأت به عن التقليد في كل اتجاهاته الفكرية والادبية. فنراه وهو في السابعة عشرة من عمره ينشد قصيدة في مدح آل البيت رسول الله صلى الله عليه وآله، وفيها يسجّل ألوان الابداع الفني إضافة الى إبداعه في الفكرة والتوجّه الى هذا البيت الكريم.

ويلاحظ في شعر أبي تمام الجمع بين الحسّ والعقل، وهو تزواج قلّما نجده في الشعر العربي، بل نجده كثيرا في الشعر الفارسي. نرى ذلك بوضوح في المقدمات الغزلية لقصائدة، من ذلك قصيدته التي مطلعها:

دِمَنٌ ألمَّ بها فقال سلامُ كم حَلَّ عُقدَةَ صبره الإلمامُ(٥)

وهكذا في أبياته عن تجارب الدهر كقصيدته:

عنّت فأعرضَ عن تعريضها أرَبي يا هذه عُذُري في هذه النُّكَب

وأمثال ذلك في ديوانه كثير.

وابتعاده عن التقليد فجّر في شاعريته التجديد في المعاني، فنرى ديوانه مملوء بالمعاني المبتكرة وفي بعض قصائده يكاد لايخلو بيت من هذا الابتكار والابداع كقصيدته التي يمدح المأمون ومطلعها:

كُشِفَ الغطاءُ فأوقدي أو أخمدي لم تكمَدي ، فظننتِ أن لم يكْمَدِ

وقصيدته التي يرثي بها محمد بن حُميد الطوسي:

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الامرُ فليس لعين لم يفض ماؤها عُذرُ

أو قصيدته البائية العظيمة في مدح عبد اللّٰه بن طاهر:

هنَّ عوادي يوسفٍ وصواحبُه فعزما فقدما أدرك السؤل طالبُه

أو قصيدته التي يمدح بها المعتصم بعد وقعه عمورية:

السيف أصدق إنباء من الكُتُبِ في حدّهِ الحدّ بين الجدّ واللعِبِ

والظاهرة الهامة الاخرى في ديوان أبي تمام تفاعل شعره مع أحداث عصره بحيث تشكل صفحاته مرآة صافية لتاريخ أبناء ذلك العصر في الابعاد النفسية والسياسية. من هنا تتضح أهمية دراسة شعر أبي تمام فنيا وتاريخيا.

ايران في عصر أبي تمام

دخل الاسلام إيران عن طريق القلوب ، وتعاون الايرانيون مع العرب للقضاء على طاغوت ايران(٦)، فدخل الناس في دين اللّٰه أفواجا، وتفاعلوا مع الدين المبين حتى نبغ خلال القرن الاول ايرانيون في مختلف علوم الدين واللغة العربية وآدابها.

ويظهر من الوثائق التاريخية أن العرب الذين دخلوا إيران إبان الفتح الاسلامي كانوا يحملون - بصورة عامة - روح الدعوة والهداية، وعلى أيديهم انتشرت اللغة العربية وعلوم الدين، وبسلوكهم الاسلامي اجتذبوا ملايين الايرانيين ليكونوا جنودا للاسلام بفكرهم وعلمهم وسيفهم. لكننا نلاحظ في فترة متقدمة من الفتح سلوكا منحرفا من بعض الولاة، غير أن الخليفة عمر لم يكن يسمح لهذه الظاهرة بالاستمرار(٧). وفي عصر الخليفة عثمان بدأ منحنى أخلاق الولاة بالهبوط، فأثار سخط أهل البلاد المفتوحة. والامام عليّ بعد توليه الخلافة سارع الى تغيير مسار هذا الانحراف فأرسل الى البلاد المفتوحة صلحاء الصحابة والتابعين ما أمكنه ذلك،

ونقل عاصمته الى الكوفة ليكون قريبا من الايرانيين الذين يشكلون الغالبية العظمى من المسلمين غير العرب.

ولم تُثنَ الوسادة لعليّ، وبعد شهادته واستيلاء البيت الاموي على الحكم عاث معظم الولاة الامويين فسادا في الارض، وتجبروا وطغوا وساموا الناس سوء العذاب(٨). ولولا مرور الايرانيين - ولو لفترة قصيرة - بتجربة الحكم الاسلامي وخاصة خلال سنوات حكومة عليّ، ووجود الدعاة العلويين بينهم، لارتدوا عن الدين بسبب ما رأوه من مفارقات سلوكية لدى الولاة بشكل خاص، ولدى القبائل العربية التي بدأ الصراع القبلي بينها على أشدّه، بتأثير السياسة الاموية، وخاصة في خراسان(٩).

وبمرور الايام ازداد حنين الايرانيين الى الحكم العلوي وسخطهم على الحكم الاموي (لا على العرب) . واستغلّ الثائرون ضد بني أمية هذه الروح لدى الايرانيين، فجنّدوهم في ثوارتهم. ثم استطاع ابو مسلم الخراساني أن يجنّد أكبر عدد منهم تحت شعار «الرضا من آل محمد»، وتوجّه بهم الى الشام فاستأصل شأفة الامويين(١٠).

ويظهر من الوثائق التاريخية أن أبا مسلم الخراساني كان ذا شخصية قوية قيادية نافذة . فدخل في عواطف الايرانيين وقلوبهم، وأصبح رمزا لانقاذهم من الظلم والطغيان وإعادة العدل العلوي وحكومة آل بيت رسول اللّه صلى الله عليه وآله اليهم. لكن وثوب العباسيين على الحكم وسحقهم كل القيم الانسانية من أجل السيطرة على الخلافة قد أصاب الايرانيين باحباط كبير، فلقد شاهدوا مقتل أبي مسلم على يد المنصور، ثم بطش الخليفة العباسي بأقاربه وبمن وطّدوا له الحكم ، ونكبة البرامكة، واقتتال الامين والمأمون، ومحاربة العلويين ومطاردتهم، كل ذلك أبعد الخلافة عن كل قدسيّة في أذهان الناس عامة والايرانيين بشكل خاص، وتحوّلت المسألة الاسلامية الى مسألة صراع مصلحي على الحكم والسيطرة، وكانت هذه الصدمة هي أيضا كافية

لأن تحدث ردّة عن الاسلام لولا وجود الدعاة والمصلحين بين الايرانيين وخاصة من آل بيت رسول اللّه ﷺ. وكان بامكانها أن تعبّئ جيشا خراسانيا آخر نحو عاصمة الخلافة العباسية لولا اهتمام الخلفاء العباسيين باغداق الاموال والجوائز على وجوههم وقوادهم(١١)، واستخدامهم في إدارة الجيش والحكم، والتظاهر بحب العلويين مثل تولية المأمون الامام الرضا عهدَه، لكن هذا الاصطناع كله لم يمنع من ظهور حركات انتقام لمقتل أبي مسلم ، ومحاولات انفصال عن الخلافة العباسية نشاهدها بكثرة ووضوح في عصر المأمون والمعتصم وهو عصر شاعرنا أبي تمام.

النصوص التاريخية تتحدث عن هذه الحركات بتحامل، وتنسب اليها عقائد منحرفة وأعمالاً مستهجنة، ومن المحتمل جدا أن يكون في ذلك كثير من الافتراء، لانها تقوم على أساس روايات السلطة العباسيّة الحاكمة. لكننا لا نستطيع أن ننزّه هذه الحركات أيضا، لانها لم تكن موضع تأييد الصالحين من أبناء ذلك العصر.

بعد مقتل أبي مسلم تظهر فجأة جماعة الراوندية(١٢) نسبة الى راوند القريبة من إصفهان. ويقال إن زعيمها الابلق تكلم بالغلوّ في علي والائمة من ولده، ثم ظهرت جماعة المقنّعة في عهد الخليفة المهدى (١٥٨ - ١٦٩هـ). بخراسان، وتدعو الى تقديس علي بن أبي طالب وأبي مسلم الخراساني كما يقول المؤرخون. وفي عصر المأمون ثار بابك الخرمي(١٣) انتقاما لابي مسلم الخراساني واستمرت ثورته الى زمان المعتصم. وفي بداية حكم المعتصم ثارت جماعة المحمّرة بالجبل ، وكانوا على نهج الخرّمية ، فقاتلهم اسحق بن إبراهيم المصعبي (ممدوح أبي تمام) وقضى عليهم. ويلاحظ أن الخلفاء العباسيين استعانوا بقواد ايرانيين للقضاء على هذه الثورات. غير أن بعض هؤلاء القوّاد أنفسهم أحسّوا بأنهم يقاتلون في سبيل خليفة لا يحظى بأية قدسيّة ولا يستحقّ أية مكانة دينية، فحاولوا أن يستقلوا ببلدانهم عن الخلافة الاسلامية كما فعل عبد اللّه بن طاهر الذي استقل بخراسان وأسس الدولة الطاهرية فيها . غير أن بعض هؤلاء القوّاد أراد الاطاحة بالخلافة العباسية نحو ما فعل

«المازيار» الذي لمع نجمه في أيام المأمون وتولى قسما من طبرستان، ولكنه في أيام المعتصم ثار ضد الخلافة العباسية، ويقال أنه راسل بابك في هذا الامر.

ومثل مازيار «الافشين»[١٤]، وهو من بلاد ماوراء النهر (خراسان الكبرى) قاد الجيوش في حرب عمورية، وأبلى بلاء حسنا في حرب بابك الخرمي. لكن المعتصم شك في نواياه فقتله شرّ قتله بعد أن نسب اليه كل قبيح من العقائد والاعمال.

أبو تمام في خراسان

قصد أبو تمام خراسان حين كان عبد اللّٰه بن طاهر واليا على خراسان والمشرق. وعبد اللّٰه هذا ابن طاهر بن الحسين القائد الخراساني الذي حارب الامين وقتله، ووطّد الحكم للمأمون. وتولّى خراسان والمشرق سنة ٢٠٥، واستقل عن الخلافة وترك الدعاء للخليفة المأمون سنة ٢٠٧. وعبد اللّٰه ابنه تولى مصر ثم تقلب في الاعمال حتى تولى أمر خراسان والمشرق بعد وفاة أبيه وأخيه مصعب سنة ٢١٤.

كان عبد اللّٰه عظيما في شخصيته وكرمه وعلمه وأدبه[١٥]. عرفه أبو تمام وهو في مصر، وعزم على الذهاب اليه سنة ٢١٩.

ويسير أبو تمام نحو ايران حتى إذا بلغ قومس[١٦] وقد أتعبه السفر قال:

يقول في قومسٍ صحبي، وقد أخذت منّا السُرى وخطا المهرية القُودِ
أمطلعَ الشمس تبغي أن تؤمّ بنا فقلت كلا ولكن مطلعَ الجودِ

وحين وصل اليه أنشده قصيدته البائية الرائعة التي ذكرنا مطلعها آنفا. ويختتمها بقوله:

ويا أيها الساعي ليُدركَ شأوَه تزحزح قصيا أسوأ الظنِّ كاذبُه
بحسبك من نيل المناقب أن تُرَى عليما بأن ليست تُنال مناقبه
إذا ما امرؤ التمى بربعك رَحلَهُ فقد طالبته بالنجاح مطالبُه

وكان في مجلس عبد اللّٰه بن طاهر جمع من الشعراء، فهاجوا وماجوا حين

استمعوا الى القصيدة، فصاح أحدهم: ما يستحق مثل هذا الشعر غير الامير أعزّه اللّه. ونادى آخر: لي عند الامير جائزة وعدني بها وقد جعلتها لهذا الرجل جزاء عن قوله للامير. ونثر عليه عبد اللّه ألف دينار فلم يمسّ أبو تمام شيئا منها والتقطها الغلمان. وقد يكون هذا الموقف من أبي تمام قد أغضب الامير لانه ترفّع عن برّه، لاننا نجد عبد اللّه قد جفا الشاعر وأهمله زمنا بعد إنشاد هذه القصيدة(۱۷). وقد تكون هذه الجفوة بسبب انجراف أبي تمام في وجة العصبيات القبلية التي كانت سائدة بين القبائل العربية في خراسان، وبين هذه القبائل وغيرها من الايرانيين أصحاب البلاد الاصليين. فنجد أبا تمام يشير في قصيدة أنشدها بخراسان الى انقسام صفوف العرب بين عدنانيين وقحطانيين، ولكنه بدل أن يدعوهم الى نبذ العصبيات الجاهلية بمنطق اسلامي، يدعوهم الى نبذها بمنطق جاهلي آخر، فيحذّرهم من التفرق كي لا يتغلب عليهم الفرس. وهي استثارة عصبية جاهلية تستنزّ الايرانيين عادة، وقد تكون قد استنزت عبد اللّه بن طاهر الايراني.

يقول أبو تمام يمدح حفص بن عمر الازدي الذي جمع بين القبائل العربية المتطاحنة:

ضممت الى قحطان عدنانَ كلَّها ولم يجدوا إذ ذاك من ذاك من بُدِّ

ثم يحذّر العرب من سيطرة الفرس بلغة مهينة بالايرانيين(۱۸):

وأوباشها خزر الى العربِ الألى لكيما يكون الحرُّ من خَوَل العبدِ
وما قصدوا إذ يسحبون على المنى برودَهُم إلا الى وارثِ البردِ
ورامُوا دمَ الاسلام لامن جهالة ولا خطأ، بل حاولوه على عمدِ
فمجّوا به سُما زُعافا ولو نأت سيوفُك عنهم، كان أحلى من الشهدِ

وهي غطرسة قومية لا تخدم المصلحة الاسلامية أبدا، بل تخلق الضغائن في النفوس، وخلقتها بالنعل في نفس الامير عبد اللّه بن طاهر، فحرم الشاعر من بحر جوده وأصبح يعاني الغربة، فيقول:

صـــريع هـــوى تُـــغاديه الهـموم بـــــنيسابور ليس له حـــــميمُ
غـــــريبٌ ليس يـــؤنسه قـــريب ولا يـــــأوى لغـــــربته رحـــيم

ولم ينقطع أبو تمام عن باب ابن طاهر في خراسان، ولم يزل كذلك حتى رضي عنه.

أحداث ايران في شعر أبي تمام

في سنة ٢٢٠ كانت موقعة «أرشق» التي هُزم فيها بابك، فقال أبو تمام شعرا في هذه الموقعة وفي الافشين قائد جيش المعتصم وفي قواد آخرين. ويواصل أبو تمام قصائده المستمدة من هذه المعارك حتى سنة ٢٢٣ حين أُخذ بابك.

ومن القواد الذين مدحهم في هذه المعارك أبو سعيد محمد بن يوسف الطائي الثغري (نسبة لعمله معظم أيامه في ثغور المسلمين)، أحد قواد هذه المعارك، وهو من مرو، وله فيه قصائد كثيرة منها الدالية:

فـاشدد يـديك عـلى يـدي وتـلافني مـــن مـطالبٍ كـدِرِ المـوارد راكـد

ومن هؤلاء القواد مهدي بن أصرم وهو طائي، وله فيه قصيدة مطلعها:

خـذي عـبرات عـينك من زُماعي وصـــوني مـــا أذلتِ عـــن القـناعِ

ويقول فيه:

عـــميدُ الغـــوث إن نُـوَب اللـيالي ســـطت وقـــريعُها عـــند القـــراعِ

وحين يُقتل محمد بن حُميد الطوسي الطائي في معاركه مع بابك يرثيه أبو تمام بقصيدة رائعة ذكرنا مطلعها وفيها يقول:

وما مات حـتى مـات مـضرب سـيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
فـأثبت فـي مستنقع المـوتِ رجلَه وقال لها: من تحتِ أخمصك الحشر

والبيت الاخير إشارة الى ثبات الطوسي في المعركة بعد أن فرّ مَن حوله مِنَ المقاتلين.

ثم يسجل أبو تمام انتصار الخليفة على بابك سنة ۲۲۳ فيشيد بالخليفة وبالافشين في ثلاث قصائد مطلع الاولى:

غدا الملك معمور الحَرا والمنازلِ مُنوِّرَ وحْشِ الرّوض عذب المناهلِ(۱۹)

وفيها يقول عن الافشين:

لقد لبس الافشين قسطَلَة الوغى مِحَشّاً بنصل السيف غير مواكلِ(۲۰)

والثانية:

آلت أمور الشركِ شرَّ مآلِ وأقرَّ بعد تخمّطٍ وصيالِ(۲۱)

ويذكر فيها الافشين أيضا إذ يقول:

فرماه بالافشين بالنجم الذي صدَعَ الدجى صدعَ الرداء البالي

ويخصص قصيدة لمدح الافشين مطلعها:

بذّ الجلاد البذَّ فهو دفينُ ما إن به الا الوحوشَ قطين(۲۲)

ويقول فيها:

بل كان كالضحاك في سطواته بالعالمين وأنت افريدون(۲۳)

فسيشكر الاسلامُ ما أدليته واللّه عنه وبالوفاء ضمينُ

وفي ديوان ابي تمام مدح لاسحاق بن ابراهيم المصعبي الذي أرسله المعتصم لاخضاع المحمّرة المار ذكرهم، في قصيدة مطلعها:

خَشُنتِ عليه، أختَ بني خُشين وأوقع فيك قول العاذلين

أنأيا واغترابا؟ أي صبرٍ على البلوى يعرّس بين ذين

وقال أخرى مطلعها:

أصغى الى البين مفتراً فلا جَرَما إن النوى أسأرت في عقله لمما

وفيها يقول:

ويومَ خيرجَ والالبابُ طائرةٌ لو لم تكن حامي الاسلام ما سلما

وحين قلب الخليفة ظهر المجن لافشين ونكّل به سجّل أبو تمام هذه الحادثة مادحا الخليفة مصورا كفران الافشين بالنعمة في قصيدة مطلعها:

الحـــقُّ أبـــلج والســـيوف عـــوار فـــحذار مـــن أسَـــدِ العـــرين حـــذارِ

وفيها يقول:

مـــا كـــان لولا فُـــحش غـــدرة خـــيذر ليكـــون فـــي الاســـلام عـــامُ فِـــجار[٢٤]

مـــــازال سِـــــرُّ الكـــفر بـــين ضـــلوعه حـــتى اصـــطلى سِـــرَّ الزنـــاد الواري

وهكذا نرى أن أبا تمام يسجّل الاحداث الهامّة التي ألمت بايران في عصره.

أثر إيران في شعر أبي تمام

يرى النقاد أن انفعال أبي تمام بالمعارك التي شهدها في ايران «قد أعطت شعره لونا جديدا. ذلك أن شعر أبي تمام قبلها كان لا يكثر فيه وصف الحرب، أما بعد هذه الموقعة فقد كثر كثرة جعلته من مميزات شعره».

وليس هذا فحسب بل إن شعر أبي تمام قد حدثت فيه نقلة نوعية بعد سنة ٢٢٠. فهذه السنة «وما بعدها من حياة أبي تمام هي السنين التي يبدو فيها خصبه النفسي بأجلى ما ظهر في شعره طول حياته». و«رحلة أبي تمام الى خراسان ختام طور من أطوار تاريخ شعر أبي تمام، وبدء طور جديد يتميز عن جميع عهوده الماضية. فبعد رجعة أبي تمام من خراسان يبدأ دور أنضج شعره وأكمله. ففي قصائده طول غير متكلف، وخصب واضح ولين، وفي التيار النفسي الجاري فيها أريحية وحلاوة، وفي حسّه تركز وعمق»[٢٥].

وإثبات هذه الاحكام يحتاج الى دراسة لما قاله من شعر بعد سفره الى خراسان، وهو مالا يستوعبه هذا المقال، لكنها بحق دراسة تستحق الاهتمام من الباحثين في الادب العربي، وخاصة من يهمهم التواصل الثقافي بين ايران والعرب.

وما هو العنصر الذي توفّر لابي تمام في ايران حتى جعل شعره يتميز بنضوج أكثر

وخصب وأريحية وحلاوة وتركز وعمق، في اعتقادنا أن الحريّة التي توفّرت لابي تمام في إيران هي التي فجّرت في نفسه هذه الطاقات الكامنة. لقد ابتعد الشاعر عن مركز الخلافة وحاشية الخلافة، فأصبح يعيش في جزء كبير من حياته لعواطفه ومشاعره الخاصّة، لا للخليفة والامير والوزير. وكان عبد اللّٰه بن طاهر في شخصيته الأدبية ومكانته المرموقة غير مكترث بأبي تمام، ولذلك تركه حالما رأى منه ما يسيئه. وهذا أدّى الى عدم ارتباط الشاعر ببلاط ابن طاهر، والى أن تتوفر له فرصة إنشاد الشعر الواقعي الذي يعبّر عن شعور الشاعر. ثم إنّ الهجرة والتفاعل الثقافي بين الشاعر العربي والبيئة الفارسية من عوامل الخصب والنماء في الثقافات والحضارات، وهذا ما نراه عند كل الشعراء النابهين الذين زاروا إيران.

ومسك ختام زيارة أبي تمام لايران تأليفه كتاب «الحماسة» فانه لما وصل همدان، وكان في زمن الشتاء، والبرد بتلك النواحي شديد، قطع عليه كثرة الثلوج طريقَ مقصده، فنزل عند بعض وجوه المدينة. وكان بيته عامرا بالكتب وفيها دواوين العرب، فتفرّغ أبو تمام لمطالعتها، واختار منها كتاب «الحماسة» وعليها شروح كثيرة، أشهرها شرح التبريزي، وشرح المرزوقي.

الهوامش:

١- انظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، تحقيق الدكتور احسان عباس، دار صادر، بيروت، ج ٢، ص١١.

٢- استنتج مرغوليوث من ذلك أن أصله يوناني، (دائرة المعارف الاسلامية، مادة: ابو تمام).

٣- الدكتور شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ط ٢ دار المعارف، القاهرة، ص ٢٦٩.

٤- يرى شوقي ضيف أن هذه القصيدة وقصيدة أخرى قالها في مدح المأمون يصرح فيها بتشيعه منها:

ووسيلتي فيها اليك طريفة شام يدينُ بحبِّ آل محمدِ

إنما كان في سبيل المأمون، وأنه لم يكن متشيعاً. (العصر العباسي / ٢٧٥ - ٢٧٦)، ولا نرى ذلك

لاسباب لامجال لذكرها.

٥- وفيها يقول مصورا أيام عشقه الماضية بأسلوب فلسفي فكري متأمل متعمّق:

أعـــوام وصـــل كـــاد يُـــنسي طـــولَها ذكـــــرُ النَّـــوى فكـــأنها أيـــامُ

ثـــم انـــبرت أيـــام هـــجر أردفت بـــجَوى أســـىً فكـــأنها أعـــوامُ

ثـم انـقضت تـلك السـنون وأهـلها فكـــــأنها وكـــــأنهم أحـــلامُ

الخطيب التبريزي، شرح ديوان ابي تمام، ط ٢، بيروت ١٤١٤هـ، ٧٢/٢ ومابعدها.

٦- انظر مقال: موقف الايرانيين من الدعوة الاسلامية، للكاتب، مجلة «رسالة التقريب»، العدد الثامن، سنة ١٤١٦هـ.

٧- انظر كتابنا: الأدب العربي وتاريخه حتى نهاية العصر الاموي، ط ١، طهران ١٣٧٥ش، ص ١١٥ وما بعدها.

٨- انظر: نفس المصدر، ص ١٤٩ ومابعدها.

٩- انظر: حسين عطوان، الشعر في خراسان من الفتح حتى العصر الاموي، ط ٢، بيروت ١٤٠٩هـ.

١٠- انظر: الدكتور حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط ٧، دار احياء التراث ١٩٦٤، ج٢، ص ١٤ ومابعدها.

١١- رجَعَ أصحاب أبي مسلم بعد أن تسلموا جوائز المنصور وهم يقولون: «بعنا مولانا بالدراهم» تعبيرا عن سخطهم على تنازلهم. (الطبري ٣١٣/٩).

١٢- انظر: حسن ابراهيم حسن ١٠٤/٢ ومابعدها.

١٣- نفس المصدر ١٠٨/٢ ومابعدها.

١٤- انظر في الافشين والمازيار نفس المصدر ١١١/٢ ومابعدها.

١٥- انظر ترجمة عبد الله بن طاهر في ابن خلكان ٨٣/٣ ومابعدها. وفيها أبيات رائعة منسوبة الى ابن طاهر منها:

نـــحن قـــوم تُـــلينُنا الحَـــدَق النُّـــجْـ لُ عـــــلى أنـــنا نُـــلين الحـــديدا

طـــوع أيـــدي الضـــباء تـــقتادنا الغـــيـ دُ ونـــــقتادُ بـــالطعانِ الاســـودا..

١٦- قومس أو كومش من أعمال الدامغان على حدود خراسان (ابن خلكان ٨٨/٣).

١٧- نجيب محمد البهبيتي، أبو تمام الطائي حياته وشعره، القاهرة، ١٩٤٥، ص ١٢٠ ومابعدها.

۱۸- نفس المصدر ۱۲۲ - ۱۲۳.

۱۹- الحرا: الساحة. الوحف: الملتف من النبات. (شرح الخطيب التبريزي ۳۹/۲).

۲۰- قسطلة الوغى: غبار الحرب.

۲۱- الصيال مصدر صالَ. والتخمط: الهياج (نفس المصدر ۱۳۰/۲).

۲۲- بذّ: سَبَق. القطين: أهل الدار (نفس المصدر ۱٦۰/۲).

۲۳- يشير الى اسطورة فارسية تحكي غلبة إفريدون على الضحاك الظالم.

۲٤- خيذر: اسم الافشين، وهو خيذر بن كاوس (نفس المصدر ۳۳٥/۱).

۲٥- البهبيتي / ۱۳۱.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی